﴿ في زوايا الخمول ﴾

لو فتشنا اليوم المعاجم اللغوية عن كلمة خصها الناس بجميع المعاني الجميلة كمعاني الحسب والشرف والجاه والرفعة الى آخرها لما لقينا سوى كلمة المال .

ولو تصفحنا القواميس عن كلمة الصق الناس بها جميع الصفات الرذيلة لما وجدنا سوى كلمة (الفقر) — وعلى هذه القاعدة بني التعامل بين الناس .

فمن ظفر بكلمة المال حظي بكل معانيها ومن كان حظه الفقر ابتلي بجميع صفاته .

فليس للفقير حظ من معاني الشرف والحسب وامثالها الا كحظه من المال .

وليس للغني نصيب من صفات الرذائل الا كنصيبه من الفقر .

ورب معترض ينكر علينا هذا الاختصاص الغريب ويسأل : اذا استطاعت الثروة ان تجعل في مائدة الساقطين من الناس نفائس الالوان ، فهل تقدر ان تجعل في اذخاصهم نفائس الصفات ؟ . . .

واذا تمكن الفقر من سلب الرخاء عن اهله فهل يقوى ان يسلبهم كرم الحسب وشرف الاصل ؟ . . .

ومتى كانت الصفات العالية من نوع السلع معروضة في الاسواق — ليشتريها اهل اليسار باموالهم ولا يتمكن المعدم من شرائها ؟ . . .

وهب انك سميت المجرم بريئاً والساقط شريفاً فهل من الممكن ان تزيل الاسماء الكاذبة نفس الجرم والسقوط من تلك النفوس الحقيرة ؟ . . .

فالمسئلة اذاً ليست مسئلة احتكار ذخيرة او بضاعة . والشريف مهما نزل به فهو شريف . والساقط مهما نال من الثروة فهو ساقط — والجوهر لا يتغير وان تغيرت الاعراض .

على رسلك ايها المعترض ، كأنك (وانت تخاطبني) مقيم في ارض غير ارضك وكائن في زمان غير زمانك لا تربطك مع الناس صلة ولا تجمعك واياهم جامعة .

وكأنك لاتعلم ان الناس ابناء الوقت الحاضر لايعبأون بالماضي ولا يعتبرون المستقبل وحجتهم فى ذلك (ان ذكر الرخاء الغابر لايسد الرمق . والرياش في الشتاء لايتصور حرارة الصيف) .

ولو حولت طرفك الى احدى جهاتك لرأيت كم من بيت شرف كان بالامس موضع اجلال ومطمح انظار فلما دخل الفقر ساحته اليوم ضرب الناس عَلَى بابه ستار النسيان وكم من بيت وضيع بالامس حينما زينته الثروة برياشها الفاخر تزاحم الزائرون عَلَى بابه حاملين فى انفسهم لاهله اعلى مراتب الاحترام وفي افواههم افصح كلمات التبجيل .

هلم معي الى احد الاغنيا الذين لم يجدوا فتاة تناسب شأنهم واعرض عليه فتاة فقيرة من ذوات الحسب ، تجده كيف يستخف برأيك و يمتعض من ارشادك اياه عَلَى فتاة لاتساويه فى المنزلة والشان . ثم استطلع رأيه لتعلم اين يجد ضالته المنشودة — يجدها في بيت الاغنياء لاغير .

وان اردت زيادة الاختبار فاذهب الى احد من امثاله خاطباً احدى حظاياه لفتى شريف دونه لترى شدة استكباره اقدامك على امر مستحيل واستعظامه مشافهتك اياه بما لايليق ، وكيف يتأسف من ذكرك فتى غير كفؤ لفتاته في علو الشان وسمو الجاه .

ألم تشاهد كثيراً من الفتيات الشريفات اجبر الفقر اولياءهن عَلَى تزويجهن باناس دونهن حسباً وشرفاً غير انهم اغنياء . وكثيراً منهن بقين في زوايا الخمول الى ان تصرمت اعمارهن وهن عذارى — وهل هنالك من ذنب استحقين به هذا الجزاء سوى الفقر ؟!...

ألم تشاهد كثيراً من الشبان الشرفاء لم يمكنهم الوقت من بذل الصداق المفروض في هذا العصر لبنات اقرانهم الاغنياء فتزوجن بالرغم عنهم وحظي بهن اناس

آخرون دون هؤلاء شرفاً لكنهم اكثر مالاً واقدر بذلاً ؟ ! ...

ألم نشاهد كثيراً من ابناء الاغنياء منعهم اولياؤهم عن الاقتران من بنات الفقراء الجميلات استصغاراً لهن وتكبراً عليهن وان كن من ذوات البيوت . فلم يلبث الميل الشديد من الابناء لتلك البنات دون ان اضطرهم الى خدعهن سراً فذهبوا بشرفهن ثم تركوهن بعد قضاء اوطر يتجرعن مرارة اليأس والبؤس والفضيحة في زمان واحد ؟ ! ...

قولي رعاك الله ماقيمة الشرف الذي لا يساوي في نظر الناس درهماً واحداً ؟ . وكيف يعتبر الفقير نفسه شريفاً وهو لم يجد بين الناس اقل حرمة لشرفه ؟ ...

دلني على رجل شريف احنى عليه الدهر ونشبت به مخالب الفقر فبقي عزيز الجانب ، رفيع القدر مرعى الاحترام كما كان في ايام ثروته ؟ ...

كم غني محترم في نظر الناس لو جردته اليوم من ثروته (بطريق التجربة) لرأيت كيف تتساقط الصفات العالية عن ردائه كما تتساقط الاوراق النضرة عن الاشجار في فصل الشتاء ولعرفت كيف تسحر الثروة ابصار الناس فتريهم الوضيع شريفاً والشريف وضيعاً .

ولو نقلت تلك الثروة نفسها الى غيره من الفقراء لرأيتها كيف تبني صرحاً جديداً لصاحبها الجديد فتمحي بمظاهره الفخيم على توالي الايام من مخيلة الناس صورة كوخه الحقير الذليل ، ولعرفتها كيف تبدد سواد اعماله الماضية كما تبدد الشمس بشعاعها ظلام الافق .

لو لم يفهم الناس من كلمة المال كل معنى جميل ومن كلمة الفقر كل صفة رذيلة لما وجد المحتالون سبيلاً الى هتك شرف البائسات ولما بقيت في زوايا الخمول عذراء قد هجرها الناس لفقر اهلها ولولا عقبة الفقر لكانت ربة بيت وام اولاد .

بغداد عبدالحسين الازري